

التواصل الفكري بين النُخب الجزائرية والتونسية

بقلم: أ.د. مولود عويمر

قسم التاريخ، جامعة الجزائر2

ملخص: تطمح هذه الورقة إلى كشف صفحات مشرقة من التواصل الفكري بين النخبة الجزائرية والتونسية خلال 40 سنة من التعاون المثمر من أجل ترقية الثقافة في البلدين المتجاورين، سائرين على خطى رواد النهضة في المغرب العربي الذين جسدوا طوال فترة الاحتلال الاستعماري المعاني السامية للتضامن الحضاري والتبادل العلمي لتحقيق الوحدة الثقافية بين الشعبين وتوثيق الصلة بين القطرين.

ولقد تجلت الصلات الفكرية بين الجزائر وتونس في الفترة الممتدة بين 1962 و2012 في أشكال متعددة، تبرز بوضوح الحضور الجزائري والتونسي في المشهد الثقافي من مساهمات في الندوات الفكرية والمؤتمرات العلمية والتدريس في الجامعات، وتبادل الزيارات من أجل الاطلاع على التجارب الناجحة في مجال البحث والإنتاج الفكري، وتبادل المطبوعات، والمشاركة في الكتابة الصحفية في الجرائد والمجلات المختلفة.

Résumé:

Cette étude vise à divulguer des pages brillantes de communication intellectuelle entre les deux élites Algérienne et Tunisienne durant 40 ans de coopération fructueuse dans le but de l'émancipation de la culture dans les deux pays voisins, en poursuivant les pas des pionniers de la Renaissance au Maghreb qui ont incarné durant la période de colonisation les sens élevés de coopération civilisationnelle et d'échange scientifique pour concrétiser l'unité culturelle entre les deux peuples, et de consolider les relations entre les deux pays.

Ces relations culturelles sont apparues entre l'Algérie et la Tunisie durant la période entre 1962 et 2012, sous plusieurs formes qui montrent clairement la présence Algérienne et Tunisienne au niveau du culturel, tels que la participation aux séminaires intellectuels, aux conférences scientifiques, à l'enseignement aux les universités, à l'échange de visites afin de voir les expériences réussies dans le domaine de la recherche et de la

production intellectuelle, à l'échange de publications, à la participation à l'écriture journalistique dans divers journaux et magazines.

الكلمات المفتاحية: النخب، التواصل الفكري، المغرب العربي، التعاون الثقافي، الجزائر وتونس.

الجزائر في اهتمامات النخبة التونسية:

كان الأستاذ عثمان الكعاك (1903-1976) من العلماء التونسيين الرواد الذين اهتموا بالفكر الجزائري¹، فأصدر في عام 1926 كتابه: "موجز التاريخ العام للجزائر" بأسلوب علمي يكشف من خلاله إسهامات الجزائريين في الحضارة الإنسانية، ويفند المغالطات التاريخية التي تروّج لها المدرسة التاريخية الاستعمارية، وفي ذلك يقول: "وقصدنا من تأليفه إثبات الشخصية الجزائرية الممتازة، الشخصية الجزائرية السياسية والحضارية والثقافية والفنية، ويقيننا أن قارئ هذا الكتاب ينتهي منه وقد استقر في نفسه الإيمان بوجود الشخصية الجزائرية كدولة وكحكومة وكشعب وكأمة وكتقافة وكأدب وكفن. كتبناه يوم كان الكثيرون يعتقدون أن الجزائر مصطنع سياسي و"خلق فرنسي"².

واستمر الأستاذ الكعاك بالاتصال بالجزائر من خلال الطلبة الجزائريين الذين كانوا يدرسون التاريخ عنده بالمدرسة الخلدونية. ولما قامت الثورة الجزائرية تجاوز وتعاطف معها، وليس أدل على ذلك ما كتبه في مجلة الندوة تحت عنوان: "الثورة الجزائرية من 1830 إلى 1956"³.

¹ مولود عويمر، "عثمان الكعاك رائد التواصل الفكري بين تونس والجزائر في العصر الحديث"، *جريدة البصائر*، العدد 766 (27 جويلية 2015).

² عثمان الكعاك، "الأدب الجزائري"، *الفكر*، العدد 2، (فبراير 1959)، ص 120.

³ محمد الصالح الصديق. *أعلام من المغرب العربي*، (الجزائر: موفم للنشر، 2000)، ج 2، ص 784.

وبقي على الاتصال بالنخبة الجزائرية بعد استعادة الاستقلال، من خلال مشاركاته في الملتقيات التاريخية والندوات الفكرية عبر التراب الجزائري، فدأب منذ عام 1972 على حضور أشغال ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تنظمها سنويا وزارة الشؤون الدينية الجزائرية. فكان لحضوره أثر كبير بمحاضراته وتعقيباته الثرية خاصة في مجال التاريخ الإسلامي.

وشاءت الأقدار أن يرحل عن هذا العالم من مدينة عنابة التي استضافته في إطار الملتقى العاشر للفكر الإسلامي ليقدم محاضرة حول "الأبعاد الروحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للعبادات وأهميتها لكل من الأمة والفرد"، ولم يلقها لأن المنية وافته في غرفته بالفندق يوم 16 جويلية 1976.

ونزل خبر وفاته كالصاعقة على المؤتمرين الذين كانوا ينتظرون قدومه بفارغ الصبر إلى قاعة المؤتمرات ليقدم محاضرته المبرمجة في تلك الصبيحة. وقد اعتبر الحاضرون وفاته خسارة للأمة الإسلامية والإنسانية عامة. وأقيم له حفل تأبين تحدث فيه مولود قاسم وزير الشؤون الدينية، والدكتور المنجي الكعبي أستاذ بالجامعة التونسية والدكتور مُجّد المبارك أستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، والدكتور صلاح الصاوي أستاذ بجامعة طهران، وغيرهم. ورافق الشيخ أحمد حماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ونائبه الشيخ علي شنتير جثمان الفقيد في طائرة جزائرية خاصة إلى تونس، وشاركا في دفنه وتأبينه في مقبرة الجلاز يوم 17 جويلية 1976.⁴

أما الدكتور مُجّد صالح الجابري فقد انصبت عنايته منذ خطواته الأولى في طريق البحث العلمي على دراسة تاريخ الجزائر وأدبها، فكتب عن "الهوية الجزائرية لدى الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس"⁵ و"الثورة الجزائرية من خلال المسرحيات"⁶، وبحث في "مقومات

⁴ مجلة الأصالة، الجزائر، العددان 36-37، (أوت-سبتمبر 1976)، ص 151-165.

⁵ "الهوية الجزائرية لدى الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس"، الجزائر، الثقافة، العدد 86، (مارس-أبريل 1985).

⁶ "الثورة الجزائرية من خلال المسرحيات التي نشرت بتونس"، الثقافة، 96، (نوفمبر-ديسمبر 1986).

الشخصية الجزائرية في نظر الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس⁷. كما نشر سلسلة من المقالات عن الطلبة الجزائريين في تونس⁸، ثم كتب سلسلة من المقالات حول تونس في نظر الشعراء الجزائريين⁹. وكتب أيضا عن الوعي القومي والديني عند الشعراء الجزائريين¹⁰، وتابع رحلات الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى تونس¹¹، وعلاقة رفيق دربه في الحركة الإصلاحية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بتونس¹²، كما اهتم بالثورة الجزائرية فتتبع كل ما نشرته مجلة الفكر في هذا المجال¹³، وما تضمنته المسرحيات التي تناولت هذه الثورة¹⁴.

وقد جمع محمد صالح الجابري جل مقالاته وبحوثه عن الجزائر في عدة كتب، وأهمها: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، النشاط الفكري والعلمي للجزائريين المهاجرين إلى تونس، الأدب الجزائري في تونس. وهذه المؤلفات شكلت-بحق- إضافة نوعية في البحث التاريخي المتعلق بالتواصل بين الجزائر وتونس، وأصبحت مراجع أساسية للباحثين الجزائريين، تستدعي القراءة والاستعانة بها في إنجاز البحوث، وفي إعداد الرسائل الجامعية.

لقد كان محمد صالح على حق حينما لخص طبيعة العلاقات بين الجزائر وتونس في هذه الفقرة التي استمدتها من أعماله المتعددة وجهوده الدائمة في دراسة هذا الموضوع: "الصلات الفكرية والثقافية بين تونس والجزائر تعتبر نموذجا فريدا وطريفا لما يمكن أن ينشأ من صلات

⁷ "مقومات الشخصية الجزائرية في نظر الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس"، تونس: الحياة الثقافية، (أكتوبر 1987).
⁸ "الطلبة الجزائريون في تونس" الفكر، الأعداد من فبراير 1983 إلى العدد ماي 1983.
⁹ "تونس في نظر الشعراء الجزائريين"، الفكر، جانفي 1984 إلى العدد جويلية 1985.
¹⁰ "الوعي القومي والديني عند الشعراء الجزائريين"، الفكر، أفريل 1985، يوليو 1985.
¹¹ "عبد الحميد بن باديس في تونس"، الفكر، ديسمبر 1980، يناير 1981، فبراير 1981.
¹² "الإبراهيمي والعلاقات التونسية الجزائرية"، الثقافة، العدد 87، (ماي-جوان 1985).
¹³ "الثورة الجزائرية في مجلة الفكر"، الثقافة، العدد 91، (جانفي-فبراير 1986).
¹⁴ "الثورة الجزائرية من خلال بعض المسرحيات التي نشرت بتونس إبان الثورة"، الثقافة، العدد 96، (نوفمبر-ديسمبر 1986).

حميمة بين قطرين شقيقين. كما تعتبر مثالا نادرا لعلاقات الجوار الإيجابي والخصب بين الأقطار العربية التي تجمع بينها حدود مشتركة"¹⁵.

كما ارتبط الدكتور عبد الجليل التميمي بتاريخ الجزائر، فكتب حوله دراسات عديدة، وتجدد الإشارة هنا إلى أن رسالته التي نال بها شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة بروفانس كانت حول دولة أحمد باي. ونشر بعد ذلك وثائق ثمينة عن تاريخ الجزائر في مجلته الشهيرة "المجلة التاريخية المغربية"، أو في مجالات أخرى في تونس والجزائر. كما يشارك في الفعاليات العلمية والثقافية المنظمة في الجزائر، وكذا مناقشات رسائل جامعية.

تونس في اهتمامات النخبة الجزائرية:

عاش الأديب الجزائري مُحمَّد صالح الصديق فترات طويلة في تونس في الأربعينات كطالب في جامع الزيتونة وفي الخمسينات كعضو وفد جبهة التحرير الوطني، وألف في تونس مجموعة كتب، ونشر مقالات كثيرة في الجرائد التونسية خاصة جريدة الصباح. ولم يقطع الأستاذ الصديق صلته بتونس من خلال زيارات متعددة. كما كان حريصا باستمرار على الحديث عن سنواته التونسية والكتابة عن الشخصيات التونسية التي تعلّم عليها أو صاحبها خلال وجوده في هذه البلاد المجاورة، ففي كتابه: "أعلام من المغرب العربي" خصص صفحات كثيرة لمحمد الطاهر بن عاشور، ومُحمَّد الفاضل بن عاشور، ومُحمَّد الشاذلي خزندار، وعثمان الكعك، ومُحمَّد بوشريّة وغيرهم. لم يكتب الأستاذ الصديق هذه الترجمات بلغة الراوي فقط، وإنما كتبها أيضا بلسان الشاهد، ذلك أنه كان يحرص في كل ترجمة أن يكشف عن ذكرياته مع الشخصية التي يترجم لها. ونشير هنا إلى شهادتين: الشهادة الأولى كانت عن

¹⁵ التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990)، ص أ.

الأستاذ بوشريية الذي درس عليه الأدب، فقال فيه "كان الأستاذ الشاعر يتابع باهتمام ما ينشر لي فيها، ويحثني على مواصلة الكتابة والعناية الزائدة بما أنشر..."¹⁶.

وهذه شهادة ثانية عن علم آخر وهو الشيخ مُجَّد الفاضل ابن عاشور الذي درس عليه أيضا الصديق في جامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية، فقال: "الازمت الشيخ مُجَّد الفاضل في محاضراته ولا أذكر أنني تخلفت يوما واحدا عنها طوال خمس سنوات، وأسجل للتاريخ أن له علي فضلا كبيرا في تقوية العقيدة وترسيخ الإيمان، والاعتزاز بالإسلام وأمجاده، والازدراء بالصعوبات والعراقيل التي تواجه الإنسان وهو يخوض غمار العلم، أو يبني الحياة ويصنع التاريخ"¹⁷.

وبقي الأستاذ مُجَّد الصالح الصديق علي اتصال بأستاذه ابن عاشور وزيارته كلما سافر إلى تونس، وقد زاره لآخر مرة في بيته بالمرسى في عام 1965، وأهدى له خلالها كتابه الأخير آنذاك، وهو "من قلب اللهب"، فتسلم الهدية ولسانه ينطلق في دعاية: "سيزيد حينا للجزائر بهذا الكتاب اتقادا والتهابا"¹⁸.

وللأستاذ يحي بوعزيز صلة قوية بتونس، فقد درس فيها خلال فترة الخمسينيات، واحتك بالحياة الثقافية التونسية، ونشر مقالات كثيرة في الصحف التونسية مثل "الصباح" لصاحبها الهادي العبيدي، و"الفكر" لمحمد المزالي.

جمع بوعزيز جل هذه المقالات ونشرها في كتابه المطبوع مؤخرا في مجلدين من الحجم الكبير، عنوانه: "موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، وهو دليل على كثرة المقالات والإسهام الطويل في الصحافة التونسية، وقد عاد بوعزيز إلى تونس عدة مرات خاصة أثناء

¹⁶ مُجَّد صالح الصديق، أعلام، ج 2، ص 550.

¹⁷ المرجع نفسه، ص 692.

¹⁸ المرجع نفسه، ص 694.

إعداد رسالة الدكتوراه في السبعينات. يقول في هذا الشأن "سافرت إلى تونس واشتغلت بأرشفيف الوزارة الأولى، واستفدت مما بها من وثائق، وتقارير ورسائل ذات صلة بالموضوع."¹⁹

كما شارك في عدة ملتقيات في تونس تناولت المواضيع التاريخية، كالملتقى الأول الذي انعقد بمدينة تونس في نهاية ماي 1981، حول ردود الفعل من الاحتلال الفرنسي لتونس في عام 1881، قدم فيه محاضرة عنونها: "دور تونس في دعم حركات التحرير الوطنية الجزائرية وموقف الجزائريين من احتلالها عام 1881"²⁰. وقد شارك فيه نخبة من المؤرخين العرب والغربيين منهم المؤرخ الفرنسي الشهير شارل أندري جوليان. وقد استقبلهم الرئيس الحبيب بورقيبة ورئيس وزرائه محمد مزالي.

ورجع بوعزيز مرة أخرى إلى تونس في 1982 للمشاركة في ملتقى حول صيانة جزيرة جربة المنعقد في الأسبوع الثاني من شهر أبريل بمدينة جربة. كما شارك في ملتقى دور المرأة العربية في حركة الإصلاح بمدنين جنوب تونس في عام 1992.²¹

بالإضافة إلى هذه النشاطات العلمية، ساهم يحي بوعزيز في الكتابة في المجالات الثقافية والتاريخية التونسية، فنشر عدة بحوث في "المجلة التاريخية المغربية" التي يشرف على إصدارها المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي، ومجلة "الهداية الإسلامية" الصادرة عن المجلس الإسلامي الأعلى، ومجلة "الحياة الثقافية" التابعة لوزارة الشؤون الثقافية.

أما عمار الطالبي فقد درس في جامعة الزيتونة في بداية الخمسينيات ثم سافر إلى القاهرة لمواصلة دراساته العليا في مجال الفلسفة بجامعة القاهرة. شارك في عدة ملتقيات في مجال الفلسفة والفكر الإسلامي. ولعل من أواخرها الندوة الدولية حول الشيخ محمد الفاضل

¹⁹ يحي بوعزيز. رحلة في فضاء العمر أو مذكرات القرن، (الجزائر: دار البصائر، 2009)، ج 2، ص 93.

²⁰ يحي بوعزيز، "دور تونس في دعم حركات التحرير الوطنية الجزائرية وموقف الجزائريين من احتلالها عام 1881"، الثقافة، العدد 70، (يوليو-أغسطس 1982)، ص ص 45-57.

²¹ المرجع نفسه، ص 94.

ابن عاشور وقضايا تجديد الفكر الديني وتحديث المجتمعات الإسلامية" التي نظمتها وزارة الشؤون الدينية ووزارة الثقافة والمحافظة على التراث في ديسمبر 2009. قدم خلالها الدكتور الطالبي ورقة عنوانها: "الشيخ مُجد الفاضل ابن عاشور مؤرخاً للأفكار"²²، مؤكداً على أن فكرة الوحدة؛ أي وحدة المغرب العربي كانت تمثل إطار بحثه ومحور دعوته. وقال في هذا الشأن: "كان اهتمام ابن عاشور بالمغرب العربي في درسه، والتأريخ له، ولأعلامه، لاعتقاده الراسخ أن بين أقطاره صلات وثقى، تربطه بوحدة التاريخ الإسلامي من جهة، وروابط تحدّد تاريخه بالأحداث الخاصة به أيضاً، فهو يتصوّر أن الوحدة الخاصة بالمغرب العربي، تندرج في وحدة الأمة، في تاريخها العام."²³

في رحاب الملتقيات والندوات:

لقد سبق أن أشرنا إلى مشاركة المثقفين والعلماء الجزائريين والملتقيات في المباحث السابقة، ونعود إلى الموضوع مركزين على مشاركات أخرى بما يبرز استمرار انتقال العلماء والأدباء بين البلدين للتشاقف والتبادل الفكري والعلمي بين النخب.

ويختلف حجم مشاركة النخبة التونسية في الملتقيات الجزائرية من عام إلى آخر. فعلى سبيل المثال بلغ عددهم 5 في الملتقى الثاني عشر للفكر الإسلامي المنعقد في مدينة باتنة بين 7 و14 سبتمبر 1978، وهو أكبر وفد شارك من خارج الجزائر. وكانت المحاضرات وفق الترتيب التالي: التهامي النقرة: العلم في القرآن بين الغيب والشهادة؛ بشير التركي: الإيمان بالله منطلق العلم؛ مُجد الشاذلي النيفر: دور الحضارة الإسلامية في نشأة الجامعة وتطورها؛ مُجد الفاضل الجمالي (عراقي، أستاذ بالجامعة التونسية): من مشاكل الجامعة في عالمنا المعاصر؛

²² عمار الطالبي، "مُجد الفاضل ابن عاشور مؤرخاً للأفكار"، في ندوة دولية حول الشيخ مُجد الفاضل ابن عاشور وقضايا تجديد الفكر الديني وتحديث المجتمعات الإسلامية. منشورات وزارة الشؤون الدينية، تونس، 2010، ص ص 317-379.

²³ المرجع نفسه، ص 318.

الحبيب الجنحاني: العلاقات السياسية والاقتصادية بين إفريقيا والمغرب الأوسط (ق 2-5 هـ /8-11 م).

ولكي نتجنب تكرار الأسماء السابقة، يمكننا الإشارة هنا إلى أعلام آخرين، فقد كان الشيخ محمد الحبيب بلخوجة يزور الجزائر باستمرار، ويشارك في الندوات والملتقيات العلمية، ومنها: الثقافة الإسلامية بين أمس واليوم (1977)، روح الدين الإسلامي: مصدره وأثره في السلوك (1978). وكذلك الشيخ محمد الصادق بسيس الذي تربطه علاقة قوية بالعلماء الجزائريين منذ عهد الشيخ عبد الحميد بن باديس. وكانت من أبرز محاضراته في الجزائر هي تلك التي تحدث فيها عن "ما أعطاه الإسلام للمرأة"، مؤكداً أن ذلك كاف وكفيل بأن يجنب المسلمين مشاكل اجتماعية كثيرة.

كما نسجل هنا مشاركات الشيخ محمد المختار السلامي المفتي السابق للجمهورية التونسية والذي كانت آخر مشاركاته في الملتقى الدولي حول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي نظمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ماي 2005. وكانت فرصة له للتعبير عن تأثره بهذا العالم الجزائري من خلال قراءة مقالاته في جريدة "البصائر"؛ حيث اعتبره من كبار الكُتّاب الذين عرفتهم الحضارة الإسلامية أمثال الجاحظ، وعبد الحميد الكاتب، وابن العميد، وبديع الزمان.. وغيرهم. ثم اقتنى كتابه "عيون البصائر"، ويروي قائلاً: "اخترت له في مكتبتي المكان الذي جعلته لا يفارق ناظري، أعود إليه ألتهم مقالاته، ويلتهم هو وقتي فيمضي سريعاً دون أن أشعر أنني قد عشت معه ساعات طويلة." ثم يضيف "وأخذت صورة الشيخ الإمام تزداد وضوحاً وتألّقاً وإشعاعاً في نفسي، ونما إعجابي بنبوغته وتميّزه، وأفدت منه ما يسره الله لي."²⁴

²⁴ محمد المختار السلامي، "ذكرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي"، في الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته. (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2006)، ص 134.

أما من جانب الجزائريين، فقد شارك العديد من رجال الفكر والثقافة في نشاطات مختلفة عبر التراب التونسي، نذكر منهم أبو القاسم سعد الله، عمار الطالبي، عبد الله الركبي، الشيخ أبو عمران.. وغيرهم. وبالإمكان العثور على تفاصيل كثيرة عن هذه المشاركات الجزائرية فيما سجله سعد الله في يومياته.²⁵

لقد حضر الأستاذ عثمان شوب رئيس تحرير مجلة الأصالة فعاليات الملتقى الثاني للإمام المازري الذي نظمتها وزارة الشؤون الثقافية التونسية بمدينة المنستير أيام 20-22 أكتوبر 1978. وخصص هذه المرة لمعالجة موضوع الحرية والحتمية في الفلسفة الإسلامية، ولما عاد إلى الجزائر كتب عن هذا الملتقى وأثنى عليه، كما نشر ثلاثة بحوث ألقى في هذا اللقاء العلمي، وهي: حول مشكلة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي للدكتور الحبيب الفقهي، أستاذ الفلسفة بالجامعة التونسية؛ الجبر والاختيار في التفكير الإسلامي الحديث للأستاذ محي الدين عزوز، متفقد أول للفلسفة؛ الصوفية والعقيدة الجبرية للأستاذ توفيق بن عامر المدرس بدار المعلمين العليا بتونس.

كما شارك الأستاذ شوب في مؤتمر المؤرخين المغاربة بتونس، واغتنم الفرصة لتنظيم ندوة باسم مجلة الأصالة جمع فيها نخبة من رجال الفكر والثقافة التونسيين للنقاش حول موضوع "مشاكل الثقافة العربية المعاصرة". وشارك فيها كل من الأساتذة: محمد العروسي المطوي، المنجي الكعبي، الحبيب الجنحاني، محجوب بن ميلاد، محمد المختار جنات، حمادي الساحلي، عبد المجيد الذويب، محمد اليعلاوي، الجيلاني بن الحاج يحي.

ونشير في نهاية هذا المبحث إلى نشاطات المثقفين المعارضين للسلطة الحاكمة في البلدين، ونقتصر هنا على مثالين: الشاعر الجزائري مفدي زكريا في تونس، والعالم الشيخ محمد الصالح النيفر في الجزائر.

²⁵ أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، يوميات، (الجزائر: عالم المعرفة، 2010-2011)، ج 3، ج 4، ج 5، ج 6.

لم يختَر مفدي زكريا تونس عبثا، وإنما كان اختيارا أملته سنوات طويلة عاشها في هذا البلد طالبا، ومناضلا سياسيا، وناشطا ثقافيا، بكتاباتهِ المتعددة في الصحافة التونسية واتصالاتهِ القوية بنخبتهَا. ويكفي أن نشير هنا إلى مشاركته في حفل التأبين الذي نظم بالمسرح البلدي بتونس بمناسبة الذكرى الأربعينية لوفاة الشيخ مُحمَّد الفاضل بن عاشور، فألقى شاعرنا قصيدة رثائية جاء فيها:

ما لي وللشعر والأكباد تنفطر	وللرثاء وما يرثي لنا القــــدر
الجرح اعم قان ينسى بقافية	والقرح أعرق أن يمحي له أثــــر
والخطب افد حان ييكي بملحمة	ورب خطب بكى من هوله الحجر
يا عارجا لسماء لا نفاق بها	ونازلا برحاب ما بها نكــــر
وصاعدا شهد الأفلاك حائرة	فشاقه في السماوات العلا السمر
وفاضلا لم تزل تسمو فضائله	فراح في أثرها يسمو وييتكــــر
لو أنبأتنا الليالي عن تصرفها	كنا صرفناك لولا أننا بشــــر ²⁶

ولجأ الشيخ مُحمَّد الصالح النيفر إلى الجزائر لما ضاقت به تونس بسبب مواقفه التي لا تنسجم مع الخط السياسي لبورقيبة. ووجد العالم الزيتوني في بلده الثاني الاستقبال اللائق به. واستقر سنوات في قسنطينة مدرسا ومربيا. وما زالت آثاره الطيبة على لسان طلبته الذين أصبحوا أساتذة ينشرون العلم في المدارس والجامعات الجزائرية.

في عالم المجلات الثقافية والعلمية الجزائرية التونسية: كانت مجلة الثقافة الصادرة عن وزارة الثقافة، ومجلة الأصالة الصادرة عن وزارة الشؤون الدينية من أرقى المجلات الجزائرية وأوسعها

²⁶ الصباح، 4 جوان 1970.

انتشارا في البلاد وخارجها، وأكثرها انفتاحا على كل التيارات الإيديولوجية والأقطار العالمية. فكتب فيها كتاب يساريون وليبراليون، مسلمون ومسيحيون، عرب وغربيون. فما هو نصيب تونس في مجال المواضيع في هاتين المجلتين؟ وعدد الكُتاب التونسيين فيهما؟ ولا شك أن ظهور العديد من المجالات في الكليات والجامعات استقطب الباحثين والمفكرين التونسيين وحفزهم على التعاون المثمر وتبادل الخبرات والتجارب عبر صفحاتها.

لقد عرفت مساهمات التونسيين في مجلة الأصالة منحي تصاعديا في السبعينيات من القرن الماضي، وعرفت كتاباتهم انتعاشا واضحا، فاستغل مدير المجلة الأستاذ عثمان شوب المولود في تونس علاقاته القوية بنخبته لاستكثابهم، أو الحصول على موافقتهم لإعادة نشر مقالاتهم. وهكذا نجد في مجلة الأصالة أكثر من عشرين مقالة ودراسة لأبرز الأعلام التونسية، نذكر منها حسب عدد المقالات المنشورة لكل واحد منهم: عثمان الكعاك، الحبيب الجنحاني، عبد الجليل التميمي، المنجي الكعبي، الحبيب بلخوجة، مُجد الصادق بسيس، بشير التليلي، الطيب البكوش، صالح القرمادي، هشام بوقمرة... أما عدد المشاركات التونسية في مجلة الثقافة، فهي قليلة، وأبرز من كتب فيها: مُجد صالح الجابري وأبو القاسم كرو.

أما كتابات الجزائريين في المجالات الثقافية التونسية، فهي أيضا قليلة، وأكثر الأعلام نشرت في مجلة الفكر ومجلة الحياة الثقافية. بينما أقبل العديد من الباحثين الجزائريين على النشر في المجلة التاريخية المغربية التي يشرف عليها الدكتور عبد الجليل التميمي.

وبخصوص تبادل المجالات بين الجامعات والجامعيين فهو قليل جدا، كما نجد المجالات الثقافية غير منتشرة في المكتبات والأكشاك مما يؤثر سلبا على التقارب بين الذهنيات والتعارف بين المثقفين أنفسهم. فعلى سبيل المثال انقطعت مجلة الحياة الثقافية عن السوق الجزائرية، كما لا توزع المجالات الجزائرية في الأسواق التونسية. والمشكل نفسه يطرح بالنسبة

لتنقل الكتاب بين الجزائر وتونس. فهذا أبو القاسم سعد الله يروي في يومياته أنه لم يجد في المكتبات في تونس إلا 3 عناوين من كتبه الكثيرة.²⁷

تاريخ تونس وفكرها المعاصر في البحث الجامعي الجزائري:

يعتبر الشيخ مُجَّد الطاهر بن عاشور من أبرز العلماء الذين اهتم بدراسته الباحثون الجزائريون في مجال الدراسات الإسلامية، فقد أنجزت 10 رسائل جامعية في جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية للعلوم الإسلامية بين 1994 و2011 كما يبينه الجدول الآتي:

الطالب	الموضوع	التخصص	الدرجة	سنة المناقشة
مُجَّد بن نبري	الدراسات اللغوية في التحرير والتنوير للشيخ مُجَّد الطاهر بن عاشور	لغة عربية	ماجستير	1994
حجية شيدخ	الشيخ مُجَّد الطاهر ابن عاشور: مذهبه وآراؤه العقدية	عقيدة	ماجستير	1995
مخولف سوابعة	مقاصد الشريعة عند الشيخ مُجَّد الطاهر ابن عاشور	كتاب وسنة	ماجستير	1997
حبيبة معنصر	مقصد الحرية عند الإمام مُجَّد الطاهر ابن عاشور	فقه وأصوله	ماجستير	2004
مُجَّد بن نبري	التفكير اللغوي عند الشيخ مُجَّد الطاهر ابن عاشور	لغة عربية	دكتوراه	2004
مُجَّد الصالح غريسي	مقدمات التحرير والتنوير للعلامة مُجَّد الطاهر ابن عاشور	كتاب وسنة	ماجستير	2008
أحمد بن أغوس	الآراء الأصولية عند الإمام مُجَّد الطاهر بن عاشور وآثارها في استنباطاته الفقهية من خلال تفسيره التحرير والتنوير: سورة البقرة نموذجاً	فقه وأصوله	ماجستير	2004
مراد مزعاش	المصطلح البلاغي في تفسير التحرير والتنوير للشيخ مُجَّد الطاهر بن عاشور	لغة عربية	دكتوراه	2009

²⁷ أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، يوميات، 2010، ج 5، ص 68.

2010	ماجستير	مقارنة الأديان	النصرانية في القرن الكريم في ضوء تفسير التحرير والتنوير دراسة تحليلية نقدية	حيزية لطرش
2011	ماجستير	كتاب وسنة	جهود الإمام مُجد الطاهر ابن عاشور في خدمة السنة من خلال مؤلفاته الحديثية	مراد غول

وهكذا يحتل هذا العالم التونسي المرتبة الأولى في اهتمامات الباحثين الجزائريين ولا ينافسه في ذلك عالم آخر، وما زال هؤلاء الباحثين يدرسون تراث الشيخ مُجد الطاهر ابن عاشور ويستلهمون منه الفكر والمنهج.

أما في مجال الدراسات التاريخية، فقد عرفت الجامعة الجزائرية في السنوات الأخيرة انفتاحا نحو دراسة تاريخ الآخر بعد أن ركز الباحثون الجزائريون لفترة طويلة على التاريخ الوطني، وهذا أمر طبيعي والجزائر تسترجع سيادتها واستقلالها السياسي عملت جاهدة على تعميم هذا الاستقلال على الجوانب الأخرى، خاصة ما تعلق بالشخصية والهوية الجزائرية التي تعرضت لكل عمليات الهدم والتشويه، لذلك تفرغ المؤرخون الجزائريون في مستويات مختلفة لتحرير التاريخ الجزائري من بصمات المدرسة التاريخية الاستعمارية.

لكن مع مرور الزمن، تنبه المشرفون على البحث العلمي إلى النقص في دراسة تواريخ الآخرين خاصة القريبين منا مثل دول المغرب العربي، وهكذا بدأ التوجه نحو دراسة تاريخ تونس سواء من طرف الباحثين التونسيين الذين كانوا يدرسون في الجزائر أو من طرف باحثين جزائريين.

وتبيّن بعض الإحصائيات والدراسات التي أنجزناها أن تونس استحوذت على المرتبة الأولى في الرسائل التي يخصصها الباحثون الجزائريون في تناولهم لتاريخ الآخر بشكل عام، وتاريخ المغرب العربي بشكل خاص، فقد بلغت مجموع الأطروحات التي نوقشت في الجامعة

الجزائرية حول تونس 27 أطروحة في الفترة بين 1962-2012، و15 حول المغرب، و12 حول ليبيا، و3 حول موريتانيا.²⁸

وفاء الطلبة الجزائريين لأساتذتهم الزيتونيين:

كثيرا ما يحرص المثقفون الجزائريون الذين درسوا في جامع الزيتونة على متابعة أخبار هذه المؤسسة العلمية والتواصل مع رجالها. ومن باب الوفاء، أقام المركز الثقافي الإسلامي يوم 26 أبريل 1978 ندوة حول للشيخ محمد الشاذلي بن القاضي بمناسبة الذكرى الأربعينية لوفاته. والشيخ ابن القاضي من كبار علماء الزيتونة، وصاحب "المجلة الزيتونية"، وعضو رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. زار الجزائر في عام 1972، وألقى محاضرة حول: "الإسلام في حاضره ومستقبله"، وهي كما وصفها أحد الأساتذة الحاضرين: "تحمل آراء ناضجة وأفكارا سديدة في كيفية النهوض بالإسلام وأهله، والسير في ركب الأمم الراقية".²⁹

وشارك في فعاليات هذه الندوة الأستاذ عبد الرحمان شيبان، رئيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين في عام 1947، والمفتش العام بوزارة التربية آنذاك، والشيخ أحمد حماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى. ويمكن بسهولة أن تكشف عمق تأثير هذا العالم الزيتوني في خطابات تلاميذه المتحدثين.

عبد الرحمان شيبان تربطه به علاقة قوية بحكم منصبه في جمعية الطلبة الجزائريين، فقد كان يتصل به كثيرا لتسوية قضايا الطلبة المعلقة، وكذلك لدعوته للمشاركة في نشاطاتهم الثقافية. يقول الشيخ شيبان: "ونظرا لجهه للجزائر وتعلقه الشديد بها فقد أسندت إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مهمة تمثيلها بالقطر التونسي الشقيق، فكان بهذه الصفة مشرفا

²⁸ مولود عويمر "آخرون"، نصف قرن من البحث التاريخي في الجامعة الجزائرية. 1912-2012، (قسنطينة: منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، 2013)، ص 15.

²⁹ أحمد حماني، "محمد الشاذلي بن القاضي العالم المصلح"، الأصالة، العدد 57، (ماي 1978)، ص 99.

على جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين بتونس يوجه نشاطها ويرعاه، ويساعد أعضائها بالنصح ومختلف أنواع المساعدة.³⁰

أما أحمد حماني، فروى ذكرياته عن هذا العالم الزيتوني، فقال: "عرفت الأستاذ في ميدان العلم والعمل منذ أمد طويل عام 1354 هـ/1935م، وكان أستاذنا بالزيتونة، فتلقيت منه دروسا نافعة في العربية. وكان رحمه الله يبذل مجهوداته الكبيرة في إيصال النفع لأبنائه بمختلف الطرق، محبا لهم، مشفقا عليهم، عظيم الحلم عن أخطائهم وهفواتهم، كريما معهم جميعا يشجع المتفوقين ويثيبهم، ويأخذ بيد الضعفاء ويرشدهم."³¹

وبقي الشيخ أحمد حماني على اتصال بأستاذه خلال زيارته إلى الجزائر، وفي مناسبات عديدة خاصة في اجتماعات رابطة العالم الإسلامي، وكان آخر لقاء بينهما في مدينة طرابلس بليبيا في صيف 1977؛ حيث انعقد المؤتمر الثامن لوزراء خارجية الدول الإسلامية، وحضرا كعضوين في وفد هذه الرابطة.³²

كما أقام المركز الثقافي الإسلامي بالجزائر يوم 20 نوفمبر 1978 ندوة فكرية إحياء للذكرى الأربعينية لوفاة الشيخ مُجَّد الصادق بسيس (1914-1978)، شارك فيها المنجي الكعبي، مُجَّد الطيب بسيس، شقيق الراحل، التهامي نقرة الأستاذ بجامعة الزيتونة، والشيخ الشاذلي النيفر الأستاذ بجامعة الزيتونة.

وتحدث كل المتدخلين عن مسار الشيخ بسيس العلمي والنضالي، وعبروا عن إعجابهم بآثاره وجهوده الإصلاحية. ومن أهم ما ورد في هذه المحاضرات ما عدده شقيقه من ملفاته

³⁰ عبد الرحمان شيبان، "الذكرى الأربعينية لوفاة الشيخ مُجَّد الشاذلي بن القاضي"، الأصاله، العدد 57، (ماي 1978)، ص 86-87.

³¹ أحمد حماني، مُجَّد الشاذلي بن القاضي العالم المصلح. الأصاله، العدد 57، (ماي 1978)، ص 92.

³² المرجع نفسه، ص 99.

المنشورة والمخطوطة التي تجاوزت 24 كتابا في الفقه والأدب والتاريخ والتراجم وتحقيق كتب تراثية.³³

خاتمة:

لقد عرفت التبادلات الثقافية والفكرية بين النخبة التونسية والجزائرية أوجها في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، ثم تراجعت في التسعينيات من القرن الماضي إلى درجة انعدمت معها تقريبا الأعمال المشتركة بين الأكاديميين الجزائريين والتونسيين.

وفي ختام هذا البحث ندعو الجميع إلى إيجاد مخرج لتغيير واقع الحياة الفكرية في القطرين، مخرج قادر على الامتداد كنموذج ناجح لباقي دول المغرب العربي؛ حيث ينمى هذا النموذج بإنجاز مشاريع مشتركة، وبناء جسور ثقافية قوية باتجاه إحداث نقلات نوعية في العلاقات الثقافية، وتغييرات جذرية في الخريطة العلمية في الغرب الإسلامي.

³³ الأصالة، العددان 70-71، (جوان-جويلية 1979)، ص ص 85-127.